

«طاعون» ألبير كامى الذي يجتاح العالم

الفيلم بين السياسة والواقع والرمز وبين الأمس واليوم



السير في طريق محفوف بالمخاطر



الطاعون في الفيلم يستخدم كرمز سياسي

أراد تسويق فكرة أن الناس في حاجة إلى ولاء قبل أن يعلنوا تمردهم على الأوضاع الفاسدة.

رواية مجازية

يقول المخرج لويس بويونزو "إن رواية 'الطاعون' هي رواية مجازية خالصة. في أوروبا الأربعينات كان السياق السياسي واضحا. ولهذا لم يجد كامى ضرورة لأن يضم موضوعا يستخدم فيه المجاز داخل المجاز. لكننا الآن في التسعينات، الحقبة التي تؤكد فيها وسائل الاتصال والإعلام في العالم كله سقوط الأيديولوجيا. في هذا السياق يكون من السهل أن نتخيل فيلم 'الطاعون' كفيلم من أفلام الكوارث الكونية، أو كفيلم عن مرض الأيدز، أو حتى مجرد فيلم ميلودرامي من الأفلام التي تصنع للتلفزيون عن حياة الأطباء في المستشفيات الكبرى، للأسف فإن الثقافة السينمائية التي تعتمد على قنوات متاحة للجمهور، تميل عادة إلى التخدير بدلا من التنبيه، لهذا فعندما كتبت سيناريو الفيلم قررت أن أضع في السياق المجازي مؤشرات ترتبط بموضوع المجاز. لذا فقد قمت باختيار عكسي تماما لاختيار كامى، لكنني استخدمت كل تلك المؤشرات ومنحتها رينيا خاصا. لقد حاولت أن أصور الواقع في شكل حكاية رمزية ذات مغزى أخلاقي، وأن أتحدث عن التسلسل والقمع المسلح أيضا، بطريقة مجازية".

من حق المخرج أن يتناول بالحذف والإضافة إلى العمل الأدبي لكي يطوِّع للغة السينما، شرطا الخاصة لمغزى الرواية وهو ما يفقده فيلم «الطاعون»

الملحمي الكبير المثير على طريقة الأفلام متعددة الجنسيات من التمويل الأميركي. ولا ننسى أن فيلمنا هذا مصنوع أصلا من أجل السوق الأميركية، أكبر أسواق السينما في العالم، وهنا نستطيع أن نفهم لماذا يتحدث الجميع في فيلم دور في الأرجنتين باللغة الإنجليزية، لغة الفيلم الوحيدة، ولماذا تمت الاستعانة بنجوم السينما الأميركية: روبرت دوغال ووليام هيرت.

وعلى الرغم من ذلك، يعاني الإيقاع العام لفيلم «الطاعون» من هبوط الإيقاع بعد المشاهد الافتتاحية القوية، حيث يتزهل الفيلم في نصفه الثاني، ويعاني من غلبة الحوار وتداخل الشخصيات على نحو

مربك. ولا ينجح وليام هيرت في القيام بدور الطبيب ببرودة الشد في التعامل مع الشخصية التي يفترض أنها الشخصية المحورية التي ترتبط بها مصائر الشخصيات الأخرى. هذه الشخصية كانت في حاجة إلى ممثل متوهج في إعادة كتابة الحوار الذي تنطق به بحيث تشحن الفيلم بنوع من الحرارة، مع السيطرة المفترضة على الحركة أمام الكاميرا، الأمر الذي نفتقده كثيرا في هذا الفيلم الطموح.

وقد سببت النهاية التي يختم بها الفيلم الارتباك للمتفرج... هنا نرى مطاردة على طريقة الفيلم البوليسي تنتهي فجأة، بمصرع جان تارو المصور التلفزيوني، وباقتحام الجموع للملعب الرياضي في إشارة واضحة إلى ما يجب أن يحدث، أو لعل المخرج

الطاعون الذي يصوره الفيلم يحاول أن يجعل منه معادلا للفوضى السياسية أو بالأحرى، لهيمنة الدكتاتورية والقمع والإرهاب على مقدرات الأمور في الأرجنتين، أي أنه ينتزعه من مفهومه الفلسفي والفكري المعادل للواقع بأكمله حسب رؤيا كامى، ويمنحه أرضية سياسية مباشرة. إلا أن المخرج لا يستطيع بعد ذلك سوى أن يكرر الأفكار نفسها السائدة في معظم أفلام السينما السياسية في أميركا اللاتينية: صور الفقر والتخلف والقمع، شخصيات الانتهازيين والتجارين بالطاعون، التناقض بين الغش والانتهازية التي تتعيش منها شخصيات أخرى تمثل السلطة. والتزمزأ الأخير الذي يؤدي إلى الفوضى العامة هو نوع من التاويل السياسي لما ينتظر أن تسفر عنه التطورات في الواقع الأميركي اللاتيني.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه: إذا بادء الواجب ما يجعله يرتفع كثيرا في انظار كل من تارو ومارتان؟ فهو يقوم أولا بإعداد قائمة بأسماء المصابين بالمرض، ويجري التجارب المعملية على الفئران للتوصل إلى مصل مضاد يصلح تطبيقه على نطاق واسع، ثم يقوم بالعمل ليلا ونهارا في المستشفى في قسم خاص لحالات الطاعون بمساعدة زميل له، مما يدفع تارو للتطوع للمساعدة في العمل معهم. وتفكر مارتان في البقاء والانضمام للمجموعة غير أنها تكون قد تورطت بما يكفي مع كوتار الذي يشي بها للسلطات فيتم القبض عليها وإيداعها الاستاد الرياضي مع الآخرين. يصور الفيلم تفاصيل مرعبة لانتشار الطاعون في المدينة، وحالة الفوضى في الطرق التي تنشأ نتيجة للفرع الذي يستولي على الناس، مما يؤدي في النهاية إلى التمرد الجماعي حينما يقتحم الناس الاستاد الرياضي ويطلقون سراح الضحايا ومنهم مارتان التي تصاب بطلق ناري ويموت زميلها تارو، وهو يحاول إنقاذها بعد أن يطلق كوتار النار عليه، بينما يشرف الطبيب على الوفاة متأثرا بإصابته ببدوى الطاعون.

شخصيات معزولة

من حق المخرج السينمائي أن يتناول بالحذف والإضافة إلى العمل الأدبي لكي يطوِّع للغة السينما، شرطاً هو ما يفقده فيلم «الطاعون». فالفيلم مصنوع أساسا بغرض تطويع شخصيات الرواية قسرا لأغراض الطرح السياسي المعتاد، مع بعض التاملات في مصائر الشخصيات في محاولة لاحترام جوهر ومغزى رواية كامى، لكن بينما كانت شخصيات كامى تعبر عن الشعور بالوحدة القاسية والفرغ النفسي الشديد على أرضية واقع يتغير بشدة أثناء الحرب العالمية الثانية، وكانت أيضا تعكس تنوشا في السياق الاجتماعي وانعدام التواصل بين البشر في مدينة تتميز بكونها نتاجا للاستعمار الفرنسي تعيش فيها شريحة ارستقراطية من رجاله الذين يرقبون عن قرب سقوط إمبراطوريتهم الوردية بعد احتلال النازي لها، إلا أننا لا نستطيع أن نتبين لماذا تبدو الشخصيات في الفيلم معزولة على هذا النحو عن بعضها البعض، عاجزة عن فهم مغزى ما يقع حولها رغم تجسيده القوي في الفيلم. هناك على سبيل المثال، مشاهد عديدة للفئران التي تنتشر في كل مكان، ولانتشار الجثث في الشوارع، ومشاهد أخرى مؤثرة لطفل يحتضر جراء الإصابة بالمرض، وقسيس يهب حياته من أجل أن يسجل ولو إشارة واحدة احتجاجا على ما يحدث في البلاد، لكن الهدف الأساسي للفيلم كان تحقيق المرح بين الموضوع السياسي وتركيبة الفيلم

ربما لا تكون رواية «الطاعون» للكاتب الفرنسي ألبير كامى، واحدة من أكثر الروايات صلاحية للنقل إلى لغة السينما، أو بشكل عام، إلى عمل درامي يتم تجسيده بالاستعانة بالمثلين، فالرواية تنتمي إلى ذلك النوع الذهني الذي يحمل رؤية فلسفية ونظرة قاتمة للعالم، يتم التعبير عنها من خلال الكلمة المكتوبة والوصف الأدبي.

العسكرية إبان الحكم العسكري الذي سيطر على البلاد بقيضته الحديدية في السبعينات، باختطاف عدد كبير من أطفال الأسر الفقيرة وبيعهم لأسر ثرية لضباط الجيش المحرومين من نعمة الإنجاب. وهي قضية لا تزال أصدائها تتردد حتى يومنا هذا.

الشخصيات الرئيسية في فيلم «الطاعون» هي أولا شخصية الطبيب «برنار ريو» (وليام هيرت) الذي يدرس انتشار مرض غريب في المدينة يشخصه باعتباره وباء الطاعون، لكنه يضرب عرض الحائط بتعليمات السلطات بعدم إفشاء أنباء تفشي هذا الوباء للصحافة ووسائل الإعلام المحلية والأجنبية، ويستقر بالتالي السلطات التي تلجأ إلى الاستعانة بالجيش لفرض حالة

حصار حول المدينة، وتجميع الحالات المصابة والناقلة للعدوى في الملعب الرياضي الكبير بالمدينة، على نحو يذكرنا بما وقع في تشيلي عام 1973 عندما قام الجيش في أعقاب الانقلاب العسكري ضد حكومة الرئيس سلفادور الليندي بتجميع المعارضين السياسيين في الاستاد الرياضي في سانتياغو كما رأينا في فيلم «مفقود» Missing لكوستا غافراس.

الطاعون كرمز سياسي

الشخصيات الأخرى في الفيلم من بينها مراسل التلفزيون الفرنسي المصور جان تارو، والمذيعة التلفزيونية مارتان (ساندرين بونير) اللذان يجدان فيهما لا يستطيعان الخروج من المدينة بفعل الحصار. من ناحية يجد «تارو» الفرصة مواتية للقيام بتغطية الأحداث التي لا يدرك هو بعد مدى خطورتها، ومن ناحية أخرى تسعى «مارتان» بكل استطاعتها للهروب والعود إلى فرنسا، وتقوم بالتالي بالاستعانة بخدمات رجل غامض يدعى كوتار يعدها بتدبير مخرج لها بطريقة ما.

يبدى الطبيب من الشجاعة والتمسك بالعمل معهما. وتفكر مارتان في البقاء انظار كل من تارو ومارتان؟ فهو يقوم أولا بإعداد قائمة بأسماء المصابين بالمرض، ويجري التجارب المعملية على الفئران للتوصل إلى مصل مضاد يصلح تطبيقه على نطاق واسع، ثم يقوم بالعمل ليلا ونهارا في المستشفى في قسم خاص لحالات الطاعون بمساعدة زميل له، مما يدفع تارو للتطوع للمساعدة في العمل معهم. وتفكر مارتان في البقاء والانضمام للمجموعة غير أنها تكون قد تورطت بما يكفي مع كوتار الذي يشي بها للسلطات فيتم القبض عليها وإيداعها الاستاد الرياضي مع الآخرين. يصور الفيلم تفاصيل مرعبة لانتشار الطاعون في المدينة، وحالة الفوضى في الطرق التي تنشأ نتيجة للفرع الذي يستولي على الناس، مما يؤدي في النهاية إلى التمرد الجماعي حينما يقتحم الناس الاستاد الرياضي ويطلقون سراح الضحايا ومنهم مارتان التي تصاب بطلق ناري ويموت زميلها تارو، وهو يحاول إنقاذها بعد أن يطلق كوتار النار عليه، بينما يشرف الطبيب على الوفاة متأثرا بإصابته ببدوى الطاعون.

من ناحية موقع الأحداث، قام بويونزو، وهو نفسه كاتب سيناريو الفيلم، بنقل الأحداث من وهران في الجزائر، إلى مدينة معاصرة يحافظ على نفس اسمها في الرواية أي وهران، لكنها قد تكون بونيس أربيس العاصمة الأرجنتينية نفسها، كما جعل وقت وقوع أحداثها في الزمن الحاضر بدلا من الأربعينات. وهو ما يعني أن دور الأحداث على أرضية سياسية مباشرة ترتبط بتاريخ الصراع السياسي في الأرجنتين، خاصة وأن شهرة المخرج بويونزو قامت على فيلمه الأول «الرواية الرسمية» Official Version الذي حصل على جائزة الأوسكار لأحسن فيلم أجنبي عام 1985، وكان يصور بشكل درامي مباشر قضية «الأطفال المخطوفين» أي قيام السلطات



يصور الفيلم تفاصيل مرعبة في حياة الناس



أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

كان التصدي كبيرا أمام لكل من حاولوا الاقتراب من رواية «الطاعون» لألبير كامى، وانتهى الأمر دائما بالعجز عن تحقيقها سينمائيا. لكن المخرج الأرجنتيني لويس بويونزو تمكن عام 1992 من تحويل هذا العمل الأدبي ذائع الصيت، إلى فيلم من الإنتاج المشترك بين فرنسا والأرجنتين وبتصوير أميركي من جانب إحدى شركات التوزيع الكبرى، واستعان بنجوم من الصف الأول لتمثيل الأدوار الرئيسية مثل وليام هيرت وساندرين بونير وروبرت دوغال وراؤول خوليا.

تدور أحداث الرواية الأصلية في مدينة وهران الجزائرية التي عاش فيها المؤلف ألبير كامى معظم حياته، وفيها كتب معظم مؤلفاته التي تنتمي إلى الأدب الوجودي الذي عرف أيضا بـ«أدب العبث»، ومنها روايته الشهيرة «الغريب». أما «الطاعون» فكتبتها كامى أثناء الحرب العالمية الثانية، وعندما صدرت في كتاب عام 1947، جاءت مشبعة بالكثير من أجواء الفترة التي كتبت فيها، فترة الشكوك السياسية والاجتماعية وعدم الوضوح وانعدام الرؤية. من ناحية البعد السياسي صرح كامى ذات مرة بأنه أراد أن تكون «الطاعون» رواية متعددة المستويات التي فهم محتواها، إلا أنه يرى أن المحتوى الأساسي لها يتمثل في موضوع المقاومة ضد النازية في أوروبا.

هذا البعد السياسي هو ما يبدو أن المخرج لويس بويونزو اشتغل عليه مع القيام بكل ما يمكنه من تعديلات في بنائها وشخصياتها وموقع أحداثها.

تدور أحداث الرواية الأصلية

في مدينة وهران الجزائرية التي عاش فيها المؤلف ألبير كامى معظم حياته، وفيها كتب معظم مؤلفاته التي تنتمي إلى الأدب الوجودي الذي عرف أيضا بـ«أدب العبث»

من ناحية موقع الأحداث، قام بويونزو، وهو نفسه كاتب سيناريو الفيلم، بنقل الأحداث من وهران في الجزائر، إلى مدينة معاصرة يحافظ على نفس اسمها في الرواية أي وهران، لكنها قد تكون بونيس أربيس العاصمة الأرجنتينية نفسها، كما جعل وقت وقوع أحداثها في الزمن الحاضر بدلا من الأربعينات. وهو ما يعني أن دور الأحداث على أرضية سياسية مباشرة ترتبط بتاريخ الصراع السياسي في الأرجنتين، خاصة وأن شهرة المخرج بويونزو قامت على فيلمه الأول «الرواية الرسمية» Official Version الذي حصل على جائزة الأوسكار لأحسن فيلم أجنبي عام 1985، وكان يصور بشكل درامي مباشر قضية «الأطفال المخطوفين» أي قيام السلطات